

أثر السنة النبوية فى بناء الحياة السياسية الإسلامية

بقلم:
علي محمد*

Abstract

The moulding and understanding Islamic politic are directly related to the teaching of Islam, that is, based on the faith, Islamic Law, and Islam as a complete way of life. Islamic politics can be seen as the yardstick for the Muslim's understanding in all aspects of life, guided by God, and as taught by the Quran and al-Sunnah. Therefore, the influence of al-sunnah and its contribution in understanding Islamic politics can be seen in the activities practice by the prophet Muhammad (PBUH) in every aspects of life of the ummah.

المقدمة

كانت الحياة السياسية الإسلامية ترتبط ارتباطا وثيقا بالدين الإسلامى نفسه، من حيث أنه عقيدة وشرعية ونظام متكامل للحياة: أى أن الإسلام دين ودنيا أو بلغة سياسية عصرية هو دين ودولة. ومن ثم فإن السياسة الإسلامية تكون بمثابة معالم الحياة للإمامة الإسلامية فى جوانبها المختلفة من اجتماعية وسياسية واقتصادية وحربية وغيرها، وهى القائمة على التعاليم الإلهية والتوجيهات النبوية التى جاءت من خلال القرآن والسنة الشريفة.

ولما كان بحثنا مداره الجانب السياسى وأثر السنة النبوية فيه، فسيكون الاهتمام منصبا على الأدوار والأنشطة التى قامت بها السنة الشريفة فى هذا

* الدكتور علي بن محمد، الأستاذ المساعد فى قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، باكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة ملابا بكوالالمبور

المجال السياسى الاسلامى. والمعروف أن مهمة الرسول (ص) هى تطبيق لما جاء به القرآن, فلا بد من معرفة المبادئ السياسية من هذين المنبعين العظيمين - القرآن والسنة - وذلك لان الفكر الاسلامى فى جميع جوانبه يمتاز بربط المبادئ التشريعية والقواعد التنظيمية بالمفاهيم الاخلاقية والقيم الروحية, بحيث يكون التعاون والتكامل قائمين بين الجوانب المادية والمعنوية, العقلية والوجدانية, الواقعية والمثالية.

وحقا أن ما جاء فى القرآن وتطبيق الرسول (ص) له سواء فى مكة أم فى المدينة كان لارساء قواعد العقيدة, مندرجا منها وعلى أساسها الى تحديد الاطار الذى يلتزم به الانسان, فى علاقته بنفسه وبالاخرين من خلال تنظيم محكم دقيق لحياة الانسان فى جماعته, اذ أن الدعوة الاسلامية تمتاز بارتباط الدين بالدولة ارتباطا وثيقا كارتباط القاعدة بالبناء. فالدين أساس الدولة وموجهها, ولا يمكن تصور دولة اسلامية بلا دين, كما لا يمكن تصور الدين الاسلامى فارغا من توجيه المجتمع وسياسة الدولة لانه حينئذ لا يكون اسلاما, لان أسس الدولة الاسلامية تقوم على تشريعات ومقررات الهية عامة, وقواعد كلية الى جانب مجموعة من المبادئ العامة لتنظيم السلوك البشرى العام فى الحياة الدنيا, أملا بالسعادة فى الحياة الآخرة وهدايته الى الخير والجمال, ويحقق السلام والرخاء للجنس البشرى كله.²

وعلى هذا الاساس من التصور الاسلامى للسياسة الاسلامية, استطاع الرسول (ص) أن يقيم الجماعة الاسلامية الاولى فى التاريخ, وقد ربط الرسول (ص) بين أفراد هذه الجماعة من المسلمين بالرباط الدينى الذى يقوم مقام رابطة الاسرة والدم والعصبية. وعلى هذه الصورة أصبح الاسلام نظاما سياسيا بقدر ما هو نظام دينى فى الوقت نفسه, غير أن العصر الاول ينقسم الى مرحلتين متميزتين تاريخيا: المرحلة المكية, والمرحلة المدنية. وفى المرحلة الاولى التى قضاها الرسول (ص) فى مكة منذ بعثته الى أن

² الشيخ محمود شلتوت, من توجيهات الاسلام, ص. 50-55 بتصرف.

هاجر الى المدينة، عنى التشريع القرآني والنبوي أولاً باصلاح العقيدة وتخليصها من شوائب الوثنية وافات النفوس. وكان طبيعياً ألا تشكل جماعة المسلمين في هذه المرحلة مجتمعا سياسيا، وألا يكون لهم أى تنظيم سياسى. ولذلك فلم يأمر القرآن في مكة بقتال المشركين، وإنما أمر بالصبر والعفو والصفح الجميل، ولم يأت الاذن بالقتال الا أواخر أيامهم في مكة قبيل الهجرة³.

وأما في المرحلة الثانية وهى ما بعد الهجرة الى المدينة فقد تمكن الرسول (ص) من تكوين المجتمع الاسلامى الاول فيها، وتمكن من بناء السلطة السياسية واستطاع أن يقيم دولة اختار لها شكلا يركز على نظام سياسى مستمد من القرآن والسنة فيها، حيث ارتضى الله تعالى للعالمين الاسلام ديناً: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً".⁴

ومن الواضح أن قيام الدولة الاسلامية الاولى في المدينة التى أسسها الرسول (ص) لم تكن بطريق المصادفة، ولا كان ميلادها فجأة غير مسبوق بأحداث تمهد له وتهى لظهوره. وعلى ذلك فان هذه الدراسة عن تاريخ الحياة السياسية الاسلامية، هى مقدمة لازمة لدراسة قيام الدولة الاسلامية الاولى في تاريخ الانسانية، باعتبارها صورة تاريخية من صور المجتمع السياسى. ومن ثم سوف تنقسم هذه الدراسة الى قسمين اثنين، نخصص أولاً لبداية الفكرة السياسية وقيام الدولة الاسلامية الاولى في التاريخ، وثانياً لهداية السنة النبوية في تطبيق الانظمة السياسية الاسلامية.

أولاً: بداية الفكرة السياسية وقيام الدولة الاسلامية.

ان الفكرة السياسية وقيام الدولة الاسلامية هى من القضايا الهامة التى لا يمكن أن تتجرد بتاتا عن مساهمة السنة الشريفة فيها، وذلك لأن الرسول

³ الشيخ محمد مصطفى شلبي، المدخل في التعرف بالفقه الاسلامى، ص. 60-65، ومحمد الحيدر ابادى، مجموعة الوثائق السياسية، ص. 33، بتصرف.

⁴ سورة المائدة، 120 الآية: 3.

(ص) كان داعيا الى الدين الجديد الذى أمر أن يبشر به فى الناس منذ البداية, وهو يسعى دائما لجمع الناس عليه تمهيدا لما سوف يحدث فيما بعد من انتشار هذا الدين واستقراره.

وعلى هذا فقد تجمعت حول الرسول (ص) طلائع المؤمنين الذين امنوا به, وجمع بينهم شعور قلبى واحد لا يمكن وصفه بالتطلع الى هدف مشترك يرقبه الجميع ويسعى اليه. هذا الهدف هو: أن تكون لديهم أرض يمكن أن تمارس عليها قيادتهم أى نوع من السيادة حتى يمكن لهم أن يقيموا فوقها دولة أو حكومة, تطبق تعاليم الشريعة التى ينزل بها الوحي من الله تعالى.

فلا ريب فى أن الوحي القرانى وتعاليم الرسول (ص) قد افتتحا أفقا سياسيا جديدا ومستمرًا, ولهذا كانت التجربة التأسيسية للمدينة, وذلك لأن التبشير الدينى قد وجد فى المدينة تجسيدات السياسية الأولى. وقد كان الرسول (ص) يجمع فى شخصه هبة رسول الله الذى يبلغ الوحي, وسيادة القائد الذى يحسم المناقشات ويقود جماعة المؤمنين, ثم سلطة اتخاذ القرار فيما يخص الصراعات الناشئة ومخططات الهيمنة الكائنة بين المؤمنين والكفار.

وتعد الدولة الاسلامية الأولى - فى المدينة - أقدم صورة معروفة الى اليوم فى تاريخ الانسانية للدولة, باعتبارها صورة تاريخية من صور المجتمع السياسى. وذلك بفضل تميزها عن غيرها من المجتمعات السياسية التى سبقتها فى الوجود فى قيمها ومبادئها الأساسية, أو التى كانت معاصرة لها بتقرير مبدأ الشريعة أو خضوع الدولة للقانون.

(١) الظهور الأول للاتجاه السياسى الاسلامى.

كان الاتجاه السياسى الاسلامى قد بدأ مع بداية الدعوة الاسلامية فى مجتمع مكة المكرمة نفسها, الا أن هذا الاتجاه لم يظهر بوضوح فى المرحلة المكية لأن المسلمين فى هذه المرحلة لم يكونوا أمة منفصلة عن بقية الناس فى المجتمع المكى فى مجموعه, ولم تكن لهم أرض يمكن أن تمارس عليها قيادتهم

نوعاً من السيادة لأقامة الحكومة التي تطبق شريعة الله، وذلك بالإضافة الى ظروف المسلمين الصعبة في مواجهة أذى الأعداء وبغيهم على المسلمين. فلا شك أن الرسول (ص) حين بعثه الله تعالى برسالة الاسلام جاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور، وكانت حقيقة دعوته الاسلامية تعتمد على اثبات عقيدتها التي من أبرزها بيان حقيقة الخلق والخالق، وتأكيد عقيدة التوحيد، والتذكير بيوم البعث والحساب، وأن الأمر مرجعه كله لله الواحد القهار. ولقد كانت العقيدة الاسلامية هذه: " هو الأساس الأول الذي مكن من قيام دولة المدينة، وذلك لأن الدين الجديد بما جاء فيه وحد المؤمنين وجعلهم صفاً واحداً كالبنين المرصوص، وجعل فكرهم خالصاً لله وحده وعدم الاشتراك به، حيث أن الدين هو الاعتقاد في موجود أعلى، والسلوك بناء على هذا الاعتقاد."⁵

والحق أن روح الدين التي تتجه الى الايمان بالوحدة الالهية انطوت على معنى عميق، هو ضرورة قيام الجماعة الاسلامية التي تعبد الله الواحد على أساس من الوحدة الفعلية والاتحاد التام بين عناصر الأمة الاسلامية التي هي أمة واحدة بتكافلها وتضامنها، كالبناء العضوي الذي تتأزر فيه الافعال وتتكامل مثل الجسد وأعضائه. ولهذا فان عقيدة التوحيد الاسلامي كانت ذات تأثير كبير في قيام الأمة الاسلامية وتحديد كيانها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي على أساس من محبة الله واشاعة العدل بين الناس.

والى جانب جهود الرسول (ص) في نشر دعوته سرا كان أم جهراً في مكة المكرمة لاثبات العقيدة الاسلامية في نفوس الناس، فهناك أعمال أخرى كثيرة قام بها الرسول عليه الصلاة والسلام حيث يبدو فيها واضحاً هذا الاتجاه السياسي، والذي كان يهدف منه الى منح استقلال المسلمين وتمكينهم من العمل لنشر الدين الاسلامي الجديد والدفاع عنه. ومن أهم مظاهر تلك

⁵ الدكتور محمد كمال جعفر، في الدين المقارن، ص. 19.

الاعمال السياسية التي قام بها الرسول (ص) والتي تجدر بالذكر هنا هي:

1. الأمر بالهجرة الى الحبشة:

بعد أن اشتد ايذاء كفار قريش للمسلمين في مكة المكرمة، ولم يكن لرسول الله (ص) من السلطان أو القوة في قريش ما يمكن به دفع الآذى عن امنوا به، بدأ يفكر في بلدة أخرى يرسل اليها المسلمين المستضعفين حتى يتعدوا عن ذلك الآذى. وقد اختار أرض الحبشة وأمرهم بالهجرة اليها حيث قال لهم: "لو خرجتم الى أرض الحبشة، فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه."⁶

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ص) الى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارا الى الله بدينهم. فكانت أول هجرة في الاسلام، وقد حدثت في السنة الخامسة للدعوة الاسلامية التي توافقت عام 516 ميلاديا، ثم حدثت الهجرة الثانية الى الحبشة بعد أشهر قلائل من نفس العام.⁷

ولا شك أن رواد هذه الهجرة - الأولى والثانية - الى الحبشة حنكة سياسية، وأنها لم تكن الا اجراء وقتيا قصد به مجرد حماية الأفراد المسلمين من أذى قريش وبغيها، الذين لم يكن الرسول (ص) قادرا على منعهم منه. وقد أدركت قريش أبعاد هذه الهجرة وما فيها من اعداد للمستقبل وتربص بها، تمثل في حرص الرسول (ص) على الاحتفاظ بقوة المسلمين بابعادهم عن موطن الفتنة والبلاء الذي أنزلته بهم قريش.

ومن ثم أرسلت قريش الى النجاشي ملك الحبشة حينئذ تطلب منه عودة هؤلاء المسلمين الى قومهم باعتبارهم: "فارقوا دين قومهم وجاءوا بدين ابتدعوه".⁸ وكان قريشا في ذلك أرادت أن توهم ذلك الملك أن ما فعله أولئك المسلمون المهاجرون الى بلاده جريمة في عرف قومهم

⁶ ابن هشام، السيرة النبوية، طبع بيروت، سنة 1411هـ \ 1991م، جزء 2، ص. 164.

⁷ المرجع السابق نفسه بتصرف.

⁸ ابن هشام، المرجع السابق، ص. 77.

أرادوا بهجرتهم التخلص من تبعاتها. ولكن ملك الحبشة أبى أن يرد هؤلاء المسلمين الى قريش، فبقوا بها حتى هاجر الرسول (ص) الى المدينة فلحق به أهل الهجرة الثانية، وأما أهل الهجرة الأولى فقد رجعوا بارادتهم الى مكة المكرمة.

2. تغيير خطة الدعوة الإسلامية:

كان الرسول (ص) - كما عرفنا - قد بذل ما وسعه من الجهد لدى قبائل مختلفة من القبائل العربية، لتساعده أو تدافع عنه حتى يبلغ رسالة ربه. فبعد وفاة زوجته خديجة وعمه أبى طالب وانتهاء مقاطعة قريش لبني هاشم وبني عبد المطلب، فكر الرسول عليه الصلاة والسلام في أن يغير خطة دعوته الإسلامية، حتى يكسب لها أنصارا جددًا يقدمون له العون والمساعدة.

فمن ذلك أنه قد خرج الرسول (ص) الى الطائف ومعه زيد بن حارثة، "يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجائهم أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ...".⁹ ولكن لم يستجب له أحد، بل طلبوا منه الرحيل من بلدهم بينما سفهاؤهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ويقذفونه بالحجارة، وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه حتى شج رأسه، فعاد النبي محزونًا الى مكة.¹⁰

وبعد هذا الفشل لم ييأس الرسول (ص) بل واصل كفاحه في الدعوة، وذلك ما فعله عليه الصلاة والسلام في المواسم - مواسم الحج - بمكة المكرمة، "فكان رسول الله (ص) يعرض نفسه في المواسم - اذ كانت - على قبائل العرب يدعوهم الى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به".¹¹

⁹ ابن هشام، المرجع السابق، ص. 266.

¹⁰ المرجع السابق، طبع القاهرة، سنة 1356هـ، جزء 1، ص. 421 - 422. وابن كثير، الدرر المنجى، تاريخ الرسل والملوكة، جزء 2، ص. 151.

¹¹ ابن هشام، المرجع السابق، ص. 270، وقد ذكر ابن هشام أسماء القبائل التي عرض عليها رسول الله ذلك، ص. 271 - 274.

وليس لطلب المساعدة أو النصرة والمنعة من معنى الا محاولة الرسول (ص) إيجاد منطلقات امنية للدعوة الاسلامية, وأهم هذه المنطلقات الأرض التي يكون السلطان السياسى فيها للمسلمين - أو بعبارة أخرى - الأرض التي يقيم عليها المسلمون دولتهم, فيتفرغوا وقد أمنوا مكرهم - شركاء الوطن - الى الدعوة لدينهم والجهاد فى سبيله.

وعلى كل حال, فقد أدت محاربة قريش للدعوة الاسلامية الجديدة, ومحاولة منع انتشارها وحصرها فى أضيق نطاق الى عكس ما كانت تهدف اليه. فأعمالها الوحشية والارهابية لقمع المسلمين, ثم تحذير الحجاج فى كل موسم من الاتصال بالرسول (ص) أو الاستماع الى أقواله, جعل هؤلاء القادمين يلتفتون الى هذه الدعوة ولو من باب حب الاستطلاع, ليتعرفوا على صاحبها وأسباب مقاومة قريش لها. وعن طريق هؤلاء الحجاج تناقلت أخبار الدعوة الاسلامية التي حملها الرسول (ص) شرقا وغربا, حتى وصلت الى مسامع الناس خارج مكة المكرمة, وتطاييرت أنباؤها الى يثرب - المدينة المنورة.

3 . عقد بيعة العقبة:

قبل عقد بيعة العقبة - العقبة الأولى والثانية - كانت الحالة فى يثرب - المدينة - مضطربة, ولما قدم الأوس الى مكة المكرمة يطلبون محالفة قريش ضد قومهم من الخزرج عام (10 من البعثة \ 619م), أتاها الرسول (ص) ودعاهم الى الاسلام, فقال أحدهم وهو أياس بن معاذ: "هذا والله خير مما جئتم له", ثم عاد وفد الأوس الى يثرب - المدينة - دون أن يعقدوا حلفا مع قريش.¹²

وبينما كان الرسول (ص) يعرض نفسه على قبائل العرب كعادته فى كل موسم, ففى عام (11 من البعثة 620م) لقي عليه الصلاة والسلام عند

¹² ابن الأثير, الكامل فى التاريخ, جزء 2, ص. 35, وسيرة ابن هشام, جزء 2, ص. 275 بتصرف.

العقبة بمعنى رهطاً من الخزرج - أراد الله بهم خيراً - فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فلقبت دعوته قبولا منهم. ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا، وأخذوا ينشرون الإسلام بين قومهم حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله (ص).¹³

وكانت لقاءات الرسول (ص) مع الأوس أولاً ثم مع الخزرج ثانياً بمثابة فتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية خارج مكة، وذلك عن طريق المفاوضات التي تمت بين الرسول (ص) وبين الأوس والخزرج، والتي انتهت باجراء بيعتي العقبة الأولى والثانية، وهما اللتان هيأتا كل الظروف التي تجعل في يثرب - المدينة - الدولة الإسلامية الأولى.

وهكذا، "حتى إذا كان العام المقبل (12 من البعثة 621م) وافد الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، وكان في هذا الوفد امرأة واحدة - فسميت بيعة النساء - كما سميت أيضاً بيعة العقبة الأولى، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب".¹⁴ وكان عبادة بن الصامت أحد أعضاء هذا الوفد يقول: "كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله (ص) على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا: فان وفيتم فلکم الجنة، وان غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل، ان شاء عذب وان شاء غفر".¹⁵

"فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله (ص) معهم مصعب بن عمير إلى يثرب - المدينة - وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن

¹³سيرة ابن هشام، جزء 2، ص. 276 بتصرف، والكامل في التاريخ، جزء 2، ص. 36. ولم يكن الأنصار اسماً لهم في الجاهلية، حتى سماهم الله به في الإسلام، وهم بنو الأوس والخزرج.

¹⁴سيرة ابن هشام، المرجع السابق، ص. 279.

¹⁵سيرة ابن هشام، المرجع السابق، ص. 281، وابن الأثير، المرجع السابق، ص. 36.

عدس, وأقام عنده يدعو الناس الى الاسلام, حتى لم تبق دار من دور الأمصار الا وفيها رجال ونساء مسلمون.¹⁶

وفي العام المقبل (13 من البعثة \ 622م) قدم وفد يثرب - المدينة - الى مكة المكرمة قوامه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان, وأقاموا في العقبة حتى قابلهم الرسول (ص) ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه, الا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له, وكان أول من تكلم في تلك المقابلة.¹⁷

ثم بعد ذلك تكلم الرسول (ص), فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام, ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ...".¹⁸ فقال البراء بن معرور: نعم, والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع أزرنا, فبايعناك يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب, وأهل الحلقة, ورثناها كابرا عن كابر". ولكن اعترض أبو الهيثم بن التيهان كلام البراء قائلا: "يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا, وانا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا؟" فتبسم رسول الله (ص) ثم قال: "بل الدم الدم, والهدم الهدم, أنا منكم وأنتم مني, أحارب من حاربتم وأسالم من سألتم". قال ابن هشام: "الهدم الهدم, يعنى الحرمة, أى ذمتي ذمتكم, وحرمتي حرمتكم".¹⁹

وهكذا, فقد اتفق الرسول (ص) معهم على أن يختاروا منهم اثني عشر نقيبا يمثلون قومهم, حيث قال عليه السلام: "أخرجوا الى منكم اثني عشر نقيبا, تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس".²⁰ ولقد عرفت هذه البيعة ببيعة

¹⁶سيرة ابن هشام, المرجع السابق, ص. 281 وص. 286 بتصرف.

¹⁷المرجع السابق, ص. 290 بتصرف, وابن سعد, الطبقات الكبرى, ص. 222, وابن كثير, المرجع السابق, ص. 197 رواه

¹⁸أحمد عن كعب بن مالك وأخرجه في المسند, جزء 3, ص. 461.

¹⁹سيرة ابن هشام, المرجع السابق, ص. 291 - 292, وابن كثير, المرجع السابق, ص. 199.

²⁰سيرة ابن هشام, المرجع السابق, ص. 292.

العقبة الثانية أو بيعة الحرب, لأن الرسول (ص) بايعهم على الإيمان بالله ورسوله, والطاعة فى المعروف, كما بايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم, وأن يحاربوا معه الأحمر والأسود وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.²¹

وقصارى القول فقد كانت بيعتا العقبة - الأولى والثانية - تمثلان أساسا لقيام الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة, وخصوصا بيعة العقبة الثانية التى كان نصها واضحا يدل على اتجاه الرسول (ص) الى العمل على دفع عدوان خصوم الدين الإسلامى الجديد ولو بالحرب. وليس ذلك الا عملا من أعمال السياسة التى تمارسها الجماعات المنظمة أو الجماعات السياسية.

(ب) مبادرة الرسول (صلعم) فى انشاء الدولة.

ان أول مقومات النظام السياسى هو وجود الدولة, بل ان كل تنظيم سياسى للجماعة يفترض وجود الدولة, حتى ان البعض يربط بين مدلول السياسة وفكرة الدولة ولا يعترف بصفة الجماعة السياسية بغير الدولة, وما جاء فى الاسلام وورد من نصوص وسيرة أكثر دلالة وأقوى برهنة على لزوم ايجاد الدولة فى الحياة البشرية, وأن هذه الحقيقة يمكن تأكيدها من خلال النظر الى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرته الشريفة.

وان من يراجع التاريخ النبوى يلاحظ - بجلاء - أن الرسول (ص), كان منذ بداية بعثته الشريفة وحياته الرسالية بصدد تأسيس الحكومة واقامة الدولة, وقد تم ذلك فى مرحلتين كانت المرحلة الأولى فى مكة والآخرى فى المدينة.

ففى المرحلة الأولى, قام الرسول (ص) باعداد وبناء الأفراد الصالحين, وتوفير الجماعة المؤمنة عن طريق الاتصالات الخاصة واللقاءات السرية. وبذلك بدأ يعد النواة التى ستقوم عليها الأمة الإسلامية, أى بدأ بينى الانسان

²¹ المرجع السابق نفسه, ص. 302 بتصرف.

— الفرد والجماعة — على امتداد ثلاثة عشر عاما في مكة على أساس وحدانية الله تعالى وقدرته وعظمته، وحقيقة البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار. ويمكن القول بأن الفترة المكية الممتدة خلال هذه المدة كانت بمثابة التمهيد للفترة المدنية من العهد النبوي.

وفي المرحلة الثانية عندما هاجر الرسول (ص) الى المدينة وسنحت له الظروف الملائمة، باشر عليه الصلاة والسلام تأسيس أول حكومة في دولة اسلامية، وقد بذل في ذلك أكبر مجهود بعد أن عقد ميثاق الأخوة بين أصحابه من الأنصار والمهاجرين الذين كانوا بمثابة الأعمدة لهذه الدولة الفتية، وأقام مسجدا جعله مركزا لتجمع المسلمين وموضعا لعملياته (ص) ونشاطاته الاجتماعية والسياسية.

ولقد كانت هجرة الرسول (ص) الى المدينة بمثابة اعلان عن قيام أول دولة اسلامية في الجزيرة العربية، وهي عبارة عن مبادرة مباشرة وتأثير مباشر من الرسول (ص) على هذه المهمة، حيث ظهر فيها مبدأ المسؤولية السياسية والاجتماعية ظهورا مميزا عن طريق: الاعداد والتحضير لقيام هذه الدولة بالتفاوض والتعاهد مع أهل يثرب، ثم التنظيم وتأسيس بالدولة الاسلامية الأولى فعلا في المدينة.

(1) أثر الهجرة في قيام الدولة الاسلامية.

لقد سبق أن تكلمنا عن اللقاءات والمفاوضات التي تمت بين الرسول (ص) وبين أهل يثرب - الآوس والحزرج - وكانت هذه العملية بمثابة فتح الطريق أمام الدعوة الاسلامية خارج مكة، والتي انتهت بالاتفاقات والمعاهدات المعروفة ببيعة العقبة الأولى والثانية، وهي تعتبر ارهاصات لقيام الدولة الاسلامية الأولى في يثرب - المدينة - ومن أثر هذه المفاوضات انتشر الاسلام في تلك الأرض الخصبة الطاهرة بعد هذه البيعة، والتي تعتبر بحق معاهدات دينية سياسية وعسكرية بين صاحب هذه الدعوة وبين أنصاره من أهل يثرب \ المدينة، حيث تضمنت مبدأ المسؤولية المشتركة بين الحاكم

والمحكوم، بمعنى أن هذه البيعة كانت المقدمة الأساسية بل الميثاق الفعلى لقيام دولة المدينة الإسلامية.

فكانت هجرة الرسول (ص) بداية للمرحلة الثانية من عهد النبوة، والتي عرفت بالعهد المدنى، وقد جاءت هذه الهجرة بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين وصبرهم على اعتداءات قريش فى مكة وايدائها اياهم خلال ثلاثة عشر عاما تقريبا. لذلك كانت: الهجرة فى حقيقة أمرها، تأهبا واستعدادا لنشر الدعوة الاسلامي، والدفاع عنها وخوض المعارك ضد المشركين من موقعهم الجديد فى يثرب التى دخلها الرسول (ص) واستقر فيها، وأصبحت يثرب من ذلك اليوم تعرف بالمدينة.²²

والى جانب ذلك أيضا فقد حدث نتيجة لهذه الهجرة النبوية، ظهور المجتمع الإسلامى بوضوح فى يثرب \ المدينة من حيث كانت لها حدود ومعالم، وهى ما تعرف بالتقيد الاقليمى، وذلك بالاضافة الى ظهور الغاية المشتركة فى جماعة المسلمين لنصرة هذا الدين الجديد بالجهاد، عندما أذن لهم الله تعالى بذلك عن طريق رسول الله (ص) وبوحى من الله سبحانه حيث قال:

"ان الله يدافع عن الذين امنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور* أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ..."²³، وكذلك ظهور السلطة السياسية متمثلة فى شخص الرسول (ص) عقب هجرته الى يثرب \ المدينة، والتى يحقق قيام مجتمع اسلامى سياسى، وأصبح بناء أول دولة اسلامية فيها أمرا حقيقيا.

وهكذا قامت على أثر هذه الهجرة الدولة الإسلامية، وأصبح لها كيان دولى، وحينئذ مست الحاجة الى التشريع العملى على أتم صورة، فاتجه الوحي الى تنظيم الدولة داخليا وخارجيا. فشرع لهم الأحكام التى تتناول شئونهم

²² ابن خلدون، المقدمة، ص: 283.

²³ سورة الحج، 22 \ 38 & 39.

كلها سوا منها ما يتعلق بحياة الفرد أو الجماعة، أو بعلاقة الدولة بغيرها. ولذلك فقد فصل ما أجمل من قواعد الاسلام في المرحلة الاولى ونزلت التشريعات التي احتاجت اليها الدولة الجديدة في الشئون العامة والخاصة على السواء، ونزل الوحي بعدد كبير من القواعد العامة التي تستنبط منها التشريعات الجزئية التي لم ينص عليها مباشرة في القرآن والسنة النبوية.

وقد تجلّى العمل السياسى الذى قام به الرسول (ص) نتيجة الهجرة الى يثرب \ المدينة، والذى يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان أول من أقام دولة اسلامية وبني قواعدها، أنه كان يباشر أموراً من صميم العمل السياسى والنشاط الادارى الحكومى، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

1. أن الرسول (ص) قد قام بعملية المؤاخاة بين المسلمين، لتحل هذه المؤاخاة محل ما كان يعرف في الجاهلية باسم الحلف، وذلك تأكيداً لقوله تعالى: "ان الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين اووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض".²⁴
2. وأنه عليه الصلاة والسلام قد عقد بين أصحابه وبين الطوائف والقبائل الأخرى المتواجدة في يثرب \ المدينة كاليهود وغيرهم، اتفاقية وميثاقاً أو معاهدة يعتبر في الحقيقة أول دستور للدولة الاسلامية،²⁵ في ضوء قوله تعالى:

"قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ...".²⁶

3. وأنه صلوات الله وسلامه عليه قد جهز الجيوش وبعث البعث العسكرية والسرايا الى مختلف المناطق في شبه الجزيرة، وقاتل المشركين

²⁴ سورة الأنفال، 27\8 .

²⁵ يمكن الرجوع الى نص هذا الدستور كاملاً في "مجموعة الوثائق السياسية ..."، محمد حيدر ابادى، ص: 39 - 47، وسيرة ابن هشام، جزء 3، ص: 31 - 32، والرحيق المختوم، ص: 168.

²⁶ سورة آل عمران، 46\3 .

وغزاهم وقام بمناورات عسكرية لارهاب الخصوم, وذلك بعد تشريع الجهاد حتى يتمكن المسلمون من الدفاع عى أنفسهم بالقتال والذود عن حياض الاسلام, وذلك تأكيداً لقوله تعالى:

"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير",²⁷

وغيرها من الايات الكثيرة عن مشروعية الجهاد والقتال.

4. وأنه (ص) قد راح يرأسل الملوك والأمراء يدعوهم الى الانضواء تحت راية الاسلام والدخول فى ظل دولته والقبول بحكومته الالهية, وقد عقد مع بعضهم المعاهدات, وأقام بعض التحالفات العسكرية والسياسية والمعاهدات الاقتصادية,²⁸ مما دعم مركزها السياسى فى الداخل. كما بعث السفراء والمندوبين السياسيين الى الملوك والزعماء وأنفذ السفارات الى العالم الخارجى, وكانت هذه السفارات والكتب النبوية عملاً بديعاً من أعماله الدبلوماسية, بل كانت أول عمل قام به الاسلام فى هذا الميدان.

5. وأنه عليه الصلاة والسلام قد نصب القضاة وعين الولاة, وأعطاهم برامج للإدارة والسياسة فأوصاهم فيما أوصاهم بتعليم أحكام الاسلام, ونشر الآخلاق والاداب التى جاء بها الاسلام, وتعليم أحكام القرآن الكريم, وجباية الضرائب الإسلامية كالزكاة وانفاقها على الفقراء والمعوزين وما شابه ذلك من المصالح العامة, وفصل الخصومات بين الناس وحل مشاكلهم والقضاء على الظلم والطغیان.

وبذلك تم ارساء الأسس الاقتصادية للاسلام التى ترمى الى أن تخلق بين المسلمين جواً من الحب والتعاون والايثار, ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية بين جميع المسلمين والمواطنين فى الدولة الإسلامية الجديدة.

²⁷ سورة الأنفال, ١٨ 39.

²⁸ ان يعقوب بن جعفر, تاريخ الهمقوى, جزء 2, ص: 64 بتصرف.

(2) كيفية ممارسة وظائف الدولة في الاسلام.

ان الاسلام ليس بمجرد ادعية محاوية أو طقوس ومراسم فردية يقوم بها كل فرد في بيته ومعبد، بل هو نظام سياسى ومالى وحقوقى واجتماعى واقتصادى واسع وشامل، وما ورد في هذه المجالات من قوانين وأحكام تدل بصميم ذاتها على أن مشروعها افترض وجود حاكم أو رئيس يقوم بممارستها وتنفيذها ورعايتها. لأنه ليس من المعقول سن مثل هذه القوانين والآحكام دون وجود قوة مجربة وسلطة تنفيذية تتعهد باجرائها وتتولى تطبيقها، مع العلم بأن سن القوانين والآحكام وحده لا يكفى في تنظيم الدولة والمجتمعات.

وعقب هجرة الرسول (ص) الى يثرب \ المدينة نشأت الدولة الاسلامية الأولى، وتولى زمام السلطة السياسية فيها، وذلك وفق ما دون في الوثيقة التي كتبها الرسول (ص) بينه وبينه أهل المدينة، والتي يسميها كثير من الباحثين "دستور المدينة" فأخذت هذه الدولة تباشر ممارسة مهامها التي شملت كل نواحي النشاط السياسى والتنظيمات المعروفة انذاك في مجالاتها المختلفة - كما وضحنه انفا - حيث نلخصها فيما يلى:

1. فقد أقامت العدالة عن طريق القضاء، ونظمت الدفاع وسياسة الحروب في الغزوات التي باشرها الرسول (ص) بنفسه أو بواسطة قواد سراياه وبعوثه، وبثت التعليم بين رعاياها ومن انضم الى الدين الجديد - الاسلام الحنيف - خارج المدينة كما حدث في اليمن والبحرين وغيرهما.
2. ونظمت موارد الدولة المالية بتنظيم الزكاة وطرق جبايتها وفق ظروف العصر، وعقدت المعاهدات مع القبائل والجماعات التي كانت محاربة لها، أو التي اختارت طريق السلم ازاء دعوتها الاسلامية.
3. وأنفذت السفارات الى العالم الخارجى، فوضعت بذلك أساسا للعلاقات الدولية، حين تكون الدولة الاسلامية طرفا منها.
4. ووضعت النواة الأولى للنظام الادارى في الاسلام، حيث بعث

الرسول (ص) إلى القبائل المختلفة التي دخلت في الإسلام من يقرئها القرآن، وأما في المدينة فوضعت نظام الدولة الإسلامية، حيث كان ينبى عن الرسول (ص) عمالا على القبائل الكبيرة والمدن الواسعة من قبله عليه السلام.

5. واستخدمت المسجد مكانا للعبادة كما استخدمته أيضا مركزا للحياة السياسية والاجتماعية والعسكرية، حيث كان الرسول (ص) يستقبل في المسجد أيضا السفراء والوفود من الدول الأخرى. فكان المسجد بمثابة مبنى الحكومة النبوية بالإضافة إلى وظيفته الدينية الأساسية.

6. واختارت عددا من الصحابة ليعاونوا الرسول (ص) كرئيس للحكومة في الدولة وعرفوا بكتاب الرسول (ص) الذين يعاونونه في تنظيم شئون الدولة ويمثلون الوظائف القيادية، " وذلك مثل كتاب الوحي، وكتاب الدولة لكتابة الأمور المتعلقة بدولة المدينة وشئونها"، ومنهم من يقوم بدور المستشار كالوزير، حيث كان أبو بكر وعمر بمثابة الوزيرين للرسول (ص)، وغيرهم من معاونيه في مجالات مختلفة.

وعلى هذه الصورة ثبتت دعائم النظام السياسي في المدينة، ورسخت قدم الدولة الإسلامية الناشئة التي ضمت بعد نحو من عشر سنوات معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية ودخل في عقيدتها، وانضوى تحت حكومتها سكان هذه المنطقة جميعا تقريبا. وقد مارست هذه الدولة الجديدة السلطات التي تمارسها أية دولة في العالم وهي سلطات التشريع والقضاء والتنفيذ. لذلك يستشير كبار المهاجرين والأنصار، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وجعفر وابن مسعود وعمار وحذيفة وأبو ذر وغيرهم، ويعمل برأيهم في المسائل غير الدينية.²⁹

وبالرغم من ذلك كله فإن: "من الواضح أن هذه التنظيمات التي تهدف إلى الاستقرار كانت مرحلة، لأن اعتناق الإسلام والانضمام إلى دولة

²⁹ ابن خلدون، المرجع السابق، ص: 206 بتصرف.

يؤول الى قبول التوجيهات التي تصدرها السلطة المركزية في الدولة, لأن طاعة الله والرسول واجب ديني ملازم للإسلام بحكم القرآن, وإذا كان التركيز في هذه المرحلة المبكرة على اقرار سيادة الدولة وتأمين السلم, فإن هذه الأحكام تيسر المجال لادخال تطويرات تالية تصدرها السلطة المركزية, وتراعى فيها مصلحة العموم دون الحصر في المصالح المحلية المتعددة, كما أنها تيسر على هدى مبادئ الاسلام دون الاقتصار على المصالح الشخصية المحدودة التي قد تظهر فيها الأنانية المفرقة".³⁰

وهكذا, فقد تكونت القواعد الأساسية التي تحكم سلطات الدولة الإسلامية وطريقة مباشرتها لوظائفها, ابتداء من هذا العهد النبوي وخلال عهود الخلفاء الراشدين. فكانت الأعمال والمواقف التي وقعت في هذه الحقبة التاريخية هي التي تكون معيار الحكم على ما تلا ذلك العهد من عهود, والأساس النظري لجميع الآراء والنظريات المتعلقة بحياة المسلمين في جانبها السياسي

ومن المسلم به أن العهد النبوي للدولة الإسلامية لم يشهد ظهور النظريات السياسية الإسلامية في صورة واضحة, وذلك لأن الحكم كان مفوضاً الى الرسول (ص), الأمر الذي جعل مرد الأمور كلها الى الوحي. فإذا كان تصرف الرسول (ص) في مسألة يقتضى مراجعته فيها, فقد تكفل القرآن بتوجيهه (ص) الى التصرف الأصح والموقف الأمثل. ولعل أوضح مثال لذلك هو قضية أسرى بدر وتصرف الرسول (ص) معهم بقبول الفداء منهم, عندئذ نزل قول الله تعالى: "ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم" * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم"³¹, وهو الأمر الذي يتصل بقرار سياسي من الرسول (ص).

³⁰ دز صالح أحمد العلي, دراسات في الإدارة في العهود الإسلامية الأولى, ص: 94 - 95.

³¹ سورة الأنفال, ١٨ 67 & 68

وإذا كانت طبيعة العهد النبوي لا تسمح بظهور نظريات سياسية فيه، فقد كانت الأمور تناقش بين الرسول (ص) وأصحابه، ويبدى كل منهم ما قد يكون مقتنعا به من رأي، ومن ثم فانه يمكن القول بأن هذه المرحلة قد تميزت بوحدة مصدر العمل السياسي الذي يمثل في النهاية القرارات السياسية التي اتخذها الرسول عليه السلام.

وحقا أن الفكرة السياسية الإسلامية قد بدأت مع بداية الدعوة الإسلامية نفسها، ولقد كانت تعاليمها تتضمن معاني هذه الفكرة حيث أن عقيدة التوحيد الإسلامي كانت ذا تأثير كبير في قيام المجتمع الإسلامي والامة الإسلامية، وتحديد كيائها الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والاقتصادي على أساس من محبة الله وإشاعة العدل بين الناس، ولكن مجموع المسلمين في المرحلة الأولى من هذه الدعوة - المرحلة المكية - لم يشكل مجتمعا سياسيا، وأن قيادتهم المتمثلة في شخصية الرسول (ص) أيضا لم تكن تمارس رئاسة سياسية في هذه المرحلة.

ورغم ذلك فانه بعد أن تطورت الجماعة المسلمة - أي بالهجرة والاستقرار في المدينة - فقد تغيرت الى مجتمع سياسي، يمارس فيه الرسول (ص) السلطة السياسية، فنشأت بذلك أول دولة إسلامية بل أقدمها في التاريخ الإنساني. فالواقع أن هجرة الرسول (ص) وأصحابه الى المدينة كانت نقطة التحول في حياة الاسلام، وأساسا لقيام هذه الدولة الإسلامية الأولى في التاريخ بالمدينة المنورة.

ثانيا: هداية السنة في تطبيق نظام السياسة الإسلامية:

لم يرد في السنة النبوية - وكذلك في القرآن الكريم - نص يحدد شكل نظام الحكم في الاسلام ولا هئاته أو مؤسساته، ولم يكن ذلك عن غفلة أو إهمال، وإنما كان أمرا مقصودا يستهدف المرونة، بحيث ينشأ في كل زمان ومكان النظام السياسي والقضائي والإداري وغيره الملائم لظروفه والمناسب لاحتياجاته. فاكثفت نصوص السنة والقرآن فقط ببيان المبادئ الأساسية التي

تحكم سلوك الراعى والرعية، ووضع دستور للامة يرسم منهجا فى الحياة وغايتها، ويترك لها الوسائل المناسبة لتحقيق ذلك.

وقد تحدثنا سابقا عن كيفية اقامة دولة اسلامية فى المدينة على يد الرسول (ص)، وعن ظروف نشأتها ومعالم حياة الامة الاسلامية فى جوانبها المختلفة - من اجتماعية وسياسية واقتصادية وحربية - والقائمة على التعاليم الالهية والتوجيهات النبوية التى تمثلت فى القرآن والسنة، لتطبيق نظام السياسة فى تلك الدولة وقام بممارسة العمل السياسى والنشاط الادارى الحكومى فيها.

ومن ثم سوف نعرض فى هذا القسم لهداية السنة النبوية فى تطبيق الأنظمة للتحدث عنها من خلال هذا التطبيق النبوى:

(١) ارشاد السنة فى تطبيق نظام الحكم.

لقد عرفنا سابقا أن القرآن الكريم - مصدر أحكام الاسلام الأول - قد أتى فى المجال السياسى أو الشئون الدستورية، ببعض المبادئ العامة والآساسية التى لا يمكن اهمالها فى أى نظام حكم صالح. وتركت التفاصيل والجزئيات دون اشارة اليها فى هذا الكتاب الكريم، حتى تستطيع الامة الاسلامية أن تصوغ دقائقها وفقا لمقضيات حاجاتها وأهدافها فى كل زمان ومكان.

وهكذا الشأن فى السنة النبوية، حيث أن الرسول (ص) قد طبق هذه المبادئ العامة والآساسية فى نظام الحكم، لكنه طبقها بما يلائم أحوال دولته فى المدينة ومتطلبات العصر الذى وجدت فى هذه الدولة. وإلى جانب هذا التطبيق وجدت فى خصوص كل مبدأ من هذه المبادئ الدستورية نصوص بعض الأحاديث النبوية التى تماثل آيات القرآن فى هذا الشأن. وذلك أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان لجميع أحكام الاسلام فى جميع مجالات الحياة، ومن ثم فإن كل ما ورد فيهما من أحكام يعتبر واجب الاتباع فى الدولة الاسلامية، وملزما للمسلمين.

وتعتبر هذه الأحكام العامة أو المبادئ الأساسية قيما عليا ذات أثر كبير فى صياغة التصور الإسلامى للدولة ووظيفتها وخصائص نظام الحكم فيها. وانطلاقا من هذه القيم وتأسيسا عليها تبنى التفاصيل والجزئيات فى نظام هذه الدولة فى اختصاصات السلطات فيها، وفى قيود مبشرة لهذه الاختصاصات. وإلى هذه القيم الإسلامية يؤدى الجميع فى الدولة الإسلامية واجباتهم وينالون حقوقهم.

وهكذا، فإن المبادئ العامة التى أتى بها القرآن الكريم، وقدمت لها السنة النبوية تفسيرا - قولاً وعملاً - هى الإطار العام للنظام الحكيمى الذى يطبق فى دولة المدينة فى عصر الرسالة، فضلا على اعتبارها الهداية الصالحة لانطلاق المسلمين فيما بعد للاتباع والتأسي بما طبقه الرسول (ص). ويمكن أن نأتى هنا ببعض النماذج لتلك المبادئ العامة التى حددت شكل نظام الحكم الذى قام فى عهد الرسول (ص)، ومن أهمها:

1. تنفيذ الشريعة الإلهية:

كانت الدولة الإسلامية فى عصر الرسالة تحكم بما أنزل الله وتنفذ كل ما شرعه سبحانه، لأن الإسلام يعنى التسليم بأوامر الله تعالى ونواهيه، واطاعتها والانقياد والاستسلام لله عز وجل. ومن ثم كانت صورة الحكم مقيدة للمؤمنين بالقانون الإلهى الذى اتخذ صورته كتاب الله وسنة رسوله سواء كانت قولاً أم عملاً، حيث أن الرسول (ص) لا ينطق عن هوى ولا يعمل به.

وهناك كثير من الآيات القرآنية التى تشير إلى هذا المبدأ الذى يتكلم عن سيادة التشريع الإلهى وضرورة تنفيذه، والذى قد نفذه الرسول (ص) فعلا خلال حكمه فى المدينة، وهذه عدة نماذج من تلك الآيات حيث يقول الله تعالى: "ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون"³² وقال تعالى: "وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع

³² سورة يوسف، 40\12.

أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك³³ فهذه الايات وغيرها كثير تؤكد على أن الحكم لله وحده، واعتبرت من لم يحكم بما أنزل الله كافرا وظالما، وخارجا عن طريق الصواب ومتبعا لهواه.

ولآجل ذلك، فمن الواجب أن تكون الطاعة مخصوصة لله تعالى ولرسوله (ص) ولأولى الأمر من المسلمين، وملزمة للمؤمنين وللمؤمنات كما أمرهم الله بذلك في مثل قوله تعالى:

"يا أيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتهم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا"³⁴ وغيرها كثير من الايات التي توضح ذلك.

وهكذا، لم تخرج السنة النبوية الشريفة أيضا عن معنى هذا المنهج السماوي، فقد كان الرسول (ص) يقرر ويؤكد على العمل بما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى، حيث يقول عليه الصلاة والسلام:

- "أطيعوني ما كنت بين أظهركم، وعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه"³⁵.

- "ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها"³⁶.

- "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه"³⁷.

³³ سورة المائدة، 49\5.

³⁴ سورة النساء، 57\4.

³⁵ رواه الطبراني في الكبير عن أبي أيوب الأنصاري، ورواته ثقات، التهذيب والزهيب، للمنذرى، جزء 1، ص: 80، وصحيح الزغب والزهيب، للمنذرى، تحقيق: محمد ناصر الدين الألبان، ص: 21.

³⁶ رواه الدارقطني وغيره عن ثعلبة الخشني جرتوم بن ناشر، أخرجه الدارقطني، جزء 4، ص: 184، والحاكم في المستدرک، جزء 4، ص: 115، وأبو نعيم في الحلية، جزء 9، ص: 17.

³⁷ رواه أحمد عن مالك، ذكره مالك في الموطأ بمعناه، جزء 4، ص: 246، وإسناده ضعيف لأعضائه. وأخرجه بلفظ الموطأ نفسه ابن عبد البر في الجامع، جزء 2، ص: 14 & 110، وإسناده ضعيف. وينظر: مفتاح الجنة، للسيوطي، ص: 29.

وكل ذلك يعنى أن يكون لما رسمه القرآن الكريم وما جاءت به السنة الشريفة لتسعد الأمة الإسلامية وتهديها أرادا وجماعات, وذلك بأن الله هو الحاكم الحقيقي للعالمين وأن الحكم له وحده سبحانه, وأن قانونه السماوى والآبدى هو القانون الذى يحكم به. وبذلك تصير السيادة لله وحده, بيده التشريع, وليس لآحد - وان كان نبيا - أن يأمر وينهى من غير أن يكون له سلطان من الله, والنبى لا يتبع الا ما يوحى اليه.

والواضح أن الرسول (ص), قد نفذ كل ما جاء فى القرآن الكريم من تشريع الهى, وذلك أثناء تسييره للحكم فى الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة المنورة, لأن مسئولية الرسول عليه السلام هو التنفيذ والتبليغ لما يوحى اليه, كما قال تعالى:

"ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون"³⁸. فكان طبيعيا أن يكون ذلك قدوة حسنة وهداية صالحة للأمة الإسلامية جمعاء.

2. اقامة نظام الخلافة:

كان الرسول (ص) هو آخر رسول يستخلفه الله على الأرض بعد ادم عليه السلام واخوانه من الأنبياء والرسل عليهم السلام, وذلك لأن وظيفته كرسول الله الى الناس كافة هو أن يكون الممثل الآسمى والأمثل لخلافة الله على هذه الأرض, مؤكدا لما بينه الله تعالى فى قوله: "انى جاعل فى الأرض خليفة"³⁹. وقوله سبحانه أيضا: "وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما اتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم"⁴⁰.

³⁸سورة النحل, 90\16.

³⁹سورة البقرة, 30\2.

⁴⁰سورة الأنعام, 165\6.

ورغم ذلك فإن نظام الخلافة - كما عرفه التاريخ الاسلامي - لم يكن معروفا في عصر الرسالة, ولكن عندما توفى الرسول (ص) وجد المسلمون أنفسهم محتاجين لاختيار خليفة له, وعندما وقع الاختيار على أبي بكر الصديق ليكون خليفة الرسول, تقدم المسلمون لمبايعته على الخلافة. ثم بدأت معالم نظام الخلافة الاسلامية تأخذ طريقها الى الظهور في شكل محدود, وبدأت هذه المعالم تتضح رويدا رويدا مع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وتطور المجتمع الاسلامي. وكانت هذه الخلافة محافظة على صورتها المثالية المعبرة عن طبيعة النظرة الاسلامية الى الحكم طوال عصر الخلفاء الراشدين.

وفي الحقيقة أن نظام الخلافة قائم منذ عصر الرسالة في هذه الصورة المثالية, حيث كان الرسول (ص) على رأس هذه الخلافة. فكأن الرسول (ص) مفوض في حكم الرعية لأن يحكمها بما أنزل الله عليه من دستور قرآني, ولهذا فهو لا يحتاج الى هيئة تشريعية أو قانونية لكي تضع له هذا الدستور. وذلك لأن كلمة ترسل من السماء تنطوي على دستور الهى يفوق ما يتفق عليه البشر من أنظمة وقوانين لكي يرتدع بها الناس دون جدال حوار.

ولهذا كان نظام الحكم في الدولة الاسلامية الأولى في عصر الرسالة نظاما الهيا روحيا, وهو نظام لم يعتمد على بطش حاكم فرد وتسلطه بالقوة الجسدية والجبروت. وأن المسئولية القانونية وسيادتها لا يمكن أن تكون لغير الله وحده, لأن هذه السلطة القانونية انما هي بحمل العقيدة والتشريع الذى وضعه الله لكي ينظم به حياة البشر. فلا يكون الرسول (ص) سوى تطبيق هذه القواعد والآصول التى وضعها المشرع العظيم سبحانه وتعالى على حياة البشر, وبذلك فقد يبرز معنى استخلاف الله على البشر, وكان هذا المعنى يتمثل في شخصية الرسول (ص) ثم في شخصية المؤمنين من بعده.

وفيما يتعلق بالسلطة السياسية, فهى تعنى ولاية الرسول على المجتمع لتدبير شئونه, وهذا يتطلب حنكة ودراية وفطنة فى تناول أمور الجماعة, ولا يمكن للنصوص القرآنية أن تتسع لجميع الوقائع والأحداث اليومية حتى فى

عصر الرسول وحده، وإنما يضرب الله المثل للناس. وهذا يعني أنه يعطى نموذجاً في واقعة وحادثة معينة لكي يتأسى بها الناس ويندرج على منوالها، وهذا هو عمل سياسي دون خروج على ما أسسه الله من تشريع سماوي. ويمكن القول أن نظام الحكم النبوي في الدولة للإسلامية الأولى بالمدينة المنورة، تفرد بأركانه الخاصة عما سواه من أنظمة الحكم الأخرى. وأن وظيفة الرسول (ص) كرئيس للدولة هو المثل الأعلى لخلافة الله تعالى في الأرض.

وقد وضعت السنة النبوية قاعدة عامة للاستخلاف بحديث الرسول (ص) حيث قال: "ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمر الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"⁴¹.

وقد اتضح من خلال هذا الحديث النبوي الشريف أن الإمام أو الحاكم أو الخليفة راع ومسئول عن الناس أو جماعته ككل، ثم تدرجت هذه المسؤولية في أفراد هذه الجماعة بحيث تشمل الجميع حتى تبدو الدولة في الصورة القوية المتناسكة، نتيجة رعاية كل واحد فيها حسب وضعه الاجتماعي، سواء كان حاكماً أم رب أسرة أم غير ذلك.

وهناك أحاديث كثيرة مختلفة تؤكد على الجماعة لا بد لها من اختيار رئيس لها يقودها، ولا بد أن يكون للدولة الإسلامية رئيس واحد فقط كما يقرر الرسول (ص) نفسه، ولا بد أن تكون الإمارة والرئاسة فقط للرجل دون المرأة، ومن نماذج تلك الأحاديث النبوية هي:

- "ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل

⁴¹ متفق عليه، روى عن عبد الله بن عمر به مرفوعاً، أخرجه البخاري في مواضع منها، جزء 2، ص: 33-34 كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ومسلم بشرح النووي، جزء 12، ص: 213 كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمر العادل وعقوبة الجائر، والترمذي جزء 3، ص: 33، وأبو داود، جزء 2، ص: 180، وأحمد، جزء 2، ص: 5.

معهم الجنة".⁴² وحديث: "ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة الا لم يجد رائحة الجنة", وفي رواية: "يستريحه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة".⁴³ "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة".⁴⁴ "اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما".⁴⁵

ومن خلال نصوص السنة الشريفة السابقة تبين لنا أنه لا بد من اختيار الحاكم أو الخليفة أو الأمير, فواجب الجماعة أن تختار أحدهم يقودها عاملاً بكتاب الله المتين بصرف النظر عن لونه وجنسه, وينبغي أن يكون رجلاً ليتولى زمام الحكم دون المرأة, ولا يصح أن يكون هناك أكثر من خليفة للجماعة أو الدولة فلا بد من خليفة واحد فقط. وقد وصل ابن خلدون الى نتيجة هامة جداً من وجهة النظر الاسلامية سياسياً وحقوقياً: "أن يكون القائم بأمور المسلمين من قوم أولى عصبية قوية على من معها لعصرها ليستبوعوا من سواهم".⁴⁶

3. عقد البيعة:

البيعة هي صفة أمان وعهد وميثاق, تصون بها الجماعة أو الأمة أمرها وتعطى بها ثمرة قلوب الرعية وروح أفئدتها, لمن يقوم فيهم بما يحفظ عليهم وحدتهم ويصون لهم أمر دينهم, ثم هي واسطة العقد بين الجماعة وحاكمها, يصيبها ما يصيب كلا منهم - اماماً ورعية - وينالها ما ينالهم.

⁴² رواه مسلم عن معقل بن يسار, وأخرجه في صحيحه بشرح النووي, جزء 12, ص: 215 (كتاب الامارة, باب فضيلة الأمير المثلل وعقوبة الجائر), وينظر: منهاج الصالحين ... عز الدين بليق, ص: 437.
⁴³ متفق عليه, روى عن معقل بن يسار, أخرجه البخاري, المرجع السابق, جزء 9, ص: 115 (كتاب الاحكام, باب من اسرعى رعية فلم ينصح), ومسلم, المرجع السابق, جزء 12, ص: 214, وينظر: اللؤلؤ والمرجان ... جزء 2, ص: 243.

⁴⁴ رواه البخاري والترمذي والنسائي وأحمد عن أبي بكر, أخرجه البخاري, جزء 9, ص: 100 (كتاب الفتن بدون عنوان), والنسائي, جزء 8, ص: 200, وأحمد, جزء 5, ص: 43 بلفظ "لن يفلح قوم أسندوا أمرهم الى المرأة".
⁴⁵ رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري, وأخرجه في صحيحه بشرح النووي, جزء 12, ص: 242 (كتاب الامارة, باب اذا بيع لخليفتين), والبيهقي في السنن الكبرى, جزء 8, ص: 144.
⁴⁶ د. محمد ضياء الدين الرئيس, نظريات السياسة الاسلامية, ص: 256.

وعندما نتحدث عن اختيار رئيس الدولة فلا بد من ملاحظة أن الرسول (ص)، قد اصطفاه الله تعالى ليجمع فى زمام يده السلطتين الدينية والزمنية. غير أن ممارسته العملية تدلنا على الطريق الذى ينبغى أن يتم اختيار حكام الأمة الإسلامية من بعده، ولتكون ارهاصة لمن يأتون بعده. ولهذا فحين قيامه (ص) بتبليغ الدعوة الإسلامية أخذ يعرض نفسه على الناس، حتى تم توفيق الله له بإتمام بيعتى العقبة الأولى والثانية، حيث كانت هذه البيعة تشمل الرجال والنساء على السواء، وكانت هذه البيعة للرسول (ص) من أهل المدينة بمثابة العقد والميثاق بينه وبينهم لمناصرة كل منهم الآخر.

وقد عرفنا سابقا أن القرآن لم يوضح كيفية اختيار رئيس الدولة أو امامها، بل ترك الأمر مجملا فى البيعة والشورى التى جاءت من خلال الممارسات العملية التى تمت بين الرسول (ص) وبين المؤمنين، وكانت النصوص القرآنية التى ذكرت البيعة تؤكد ما قام به الرسول (ص)، وتجعل للبيعة أهمية خاصة، ومن تلك النصوص قوله سبحانه وتعالى:

"لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا".⁴⁷

"فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم".⁴⁸

وقد اتضحت من خلال تلك الآيات السابقة أهمية البيعة ودورها فى الممارسات العملية التى قام بها الرسول (ص) فى مواقف عديدة، وذلك لنشر الدعوة الإسلامية والاعتراف به كرسول وبالتالى كمؤسس وحاكم للدولة الإسلامية. وقد تعتبر هذه البيعة قضية موضوعية باعتبارها احدى الأركان الهامة فى اختيار الحاكم المسلم فيما بعد والتى اتخذت شكل لأهل الحل والعقد.

وهكذا، فقد عملت السنة النبوية على ايضاح النقاط المتعلقة بكيفية

⁴⁷ سورة الفتح، 18\48.

⁴⁸ سورة التوبة، 111\9.

أداء البيعة، وشروطها، وعلى من تحب هذه البيعة، حيث أنها ظهرت من خلال الممارسات العملية للبيعة التي تتم بين الرسول (ص) وبين المؤمنين، وحيث كانوا يبايعون الرسول الكريم على الإيمان بالله والتزام أوامره وتجنب نواهيه، وعلى السمع والطاعة فيما يستطيعون أداءه سواء أحبوا ذلك أم كرهوا، وعلى عمل وقول الحق والنصح فيما بينهم حيثما كانوا، لا يخشون في الله لومة لائم، وعلى أمور أخرى كثيرة تتعلق بمصالح المسلمين جميعا. وهنال أمثلة كثيرة متوفرة من أحاديث الرسول (ص) تدل على ذلك ومنها قوله عليه السلام:

"من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية".⁴⁹ "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وانه لا نبي بعدى، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوفوا ببيعة الأولى فالأول، واعطوهم حقهم، فان الله سائلهم عما استرعاهم".⁵⁰

وانطلاقاً من هذا المنظور اشترط الرسول (ص) على كل من يؤدي البيعة أن يؤديها بغرض للاخلاص للحاكم، ولن يتحقق هذا الاخلاص الا اذا كان الدافع هو الادراك العي السليم، بأن هذا الحاكم سيعمل على تحقيق سلامة وخير المجتمع. فحذر الرسول (ص) المؤمنين عند اختيارهم لمن يتولى أمرهم أن يختاروا الأصلح للأمة الاسلامية. وذلك كما جاء في حديثه (ص) حيث يقول: "من استعمل رجلاً من عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين".⁵¹

⁴⁹ رواه مسلم عن عبدالله بن عمر وأمرجه في صحيحه بشرح النووي، جزء 12، ص: 240 (كتاب الامارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن...)، وينظر: عز الدين بلقي، المرجع السابق، ص: 446.

⁵⁰ متفق عليه، روى عن أبي هريرة، أمرجه البخاري، جزء 4، ص: 326 (كتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، باب ما ذكر عن بنو اسرائيل)، ومسلم، المرجع السابق، ص: 231 (كتاب الامارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول).

⁵¹ رواه الحاكم عن ابن عباس، وأمرجه في المستدرک، جزء 4، ص: 95.

والى جانب ذلك فقد أوضح الرسول (ص) الدور الإيجابي للآمة الإسلامية في التنظيم السياسي، حيث أكد على أن دور الآمة الإسلامية في التشريع الإسلامي لا ينتهي بالبيعة ولا يحدد بالطاعة فقط، وإنما هي مسئولة عن تبصير الحاكم بمواطن ضعفه ونواحي القصور في سياسته. حيث يقول عليه الصلاة والسلام: "ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله"، وفي رواية: "ما استخلف خليفة الا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه..."⁵² وغيره من الأحاديث الأخرى كثيرة في هذا المجال.

وعلى هذا يتبين لنا عمل الرسول (ص) وهديه الذي حدد دور الآمة الإسلامية في تبصير من يتولى أمرها، ودوره بالنسبة لها ودورها بالنسبة له. وبذلك تتضح ضرورة البيعة وأهميتها التي تستوجب الحرص في اختيار من يبايعونه، حتى لا يهلكوا من امام جائر أو حاكم غاش نتيجة سوء اختيارهم.

(ب) ارشاد السنة في تطبيق سياسة داخلية.

كانت هداية السنة النبوية في سياسة الدولة الداخلية تأتي من خلال الممارسات العملية والتوجيهات القولية للرسول (ص)، وذلك بعد أن أصبح للمسلمين دولة بالمدينة يؤسسها الرسول (ص) كرئيس لهذه الدولة، حيث كان يشرع في كتابة الصحيفة المشهورة التي عرفت بدستور المدينة، ونظم من خلاله تنظيمًا وجهازًا إداريًا.

وإذا نظرنا الى ممارسات الرسول (ص) العملية عن سياسته الداخلية أثناء حكمه في الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة، تبين لنا أن الإسلام قد نظم شئون الحياة من الناحيتين: الدينية والدنيوية معاً.

فكان قيام الحكومة النبوية في المدينة المنورة قد ترتب على آثار بعيدة

⁵² رواه البخاري عن أبي يعيد وأبي هريرة، وأخرجه في صحيحه، جزء 7، ص: 239، وأبو داود في سننه من حديث أبي مرهم الأزدي، جزء 2، ص: 22.

المدى فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرها، وأن دعوة الرسول (ص) الاسلامية قد أدت الى ازالة الوثنية، والى عبادة الله الواحد الأحد هو رب العالمين. بل وجد الأمان والاستقرار فى دعوته (ص) وتمكن من وضع النواة الأولى للحكومة الاسلامية فى نظام كامل، يشمل الدين والدولة معا فى شكل جديد يحدد سياسته الداخلية المتمثلة فى النظم المختلفة.

وبعد أن قامت هذه الحكومة واستقرت دعوته (ص) فيها، أصبحت المدينة مركز التحول فى تنظيمه السياسى والاجتماعى، حيث أتاحت للجماعة الاسلامية أن تنتقل من مرحلة المبادئ الى مرحلة التطبيق، مما جعل الحياة الجديدة فيها تتطلب كثيرا من التنظيمات والتشريعات، وأن جوها أكثر ملائمة للتشريع ولاظهار النواحي السياسية والاجتماعية والادارية فى شكل جديد مثل النظام الاجتماعى، والنظام الاقتصادى والنظام المالى وغير ذلك:

1. تقويم النظام الاجتماعى:

كان الرسول (ص) منذ المرحلة الأولى من دعوته قد وجه كل عنايته الى ايجاد النظام الاجتماعى السليم - مسترشدا بالهدى الالهى - الذى يعشق المثل الأعلى، عاملا على تحقيقها فى اطار من التعاون والتضامن بين أفراد المجتمع الاسلامى حتى ينعم الجميع بالأمن والرفاهية. وكانت أهم الآثار الاجتماعية التى ترتبت على قيام الحكومة النبوية وتطبيق سياسته الداخلية هى تخطيط الفوارق الطبقيّة، والتدرج فى محاربة الرق، واعلاء شأن المرأة، والغاء طبيعة المسكرات وغيرها من الآفات الاجتماعية.

والقاعدة الأساسية التى اعتمد عليها الرسول (ص) عند تطبيق النظام الاجتماعى - من خلال أقواله وأفعاله - هى قاعدة المساواة بين النّس أجمعين، حيث لا تفاضل بينهم الا بالتقوى. ولهذا قام الرسول بتحريم تجارة الرقيق، وعمل على تحريرهم مقرا لكل انسان حق الحرية، محرما استرقاق الحر دون سبب مشروع وغالبا ما يكون بعد الأسر فى الحرب،⁵³ وانسجاما مع

⁵³ محمد الشوكان، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، جزء 8، ص: 4.

التعاليم الإسلامية التي تكرم الإنسان. أقر الإسلام وأثبت الرسول (ص) للمرأة بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية وجعلها متساوية للرجل في المجال الديني والإنساني والاجتماعي، وبلغ من تكريمها ما لم يبلغه تشريع اجتماعي في القدم ولا في الحديث.⁵⁴

وقد عالج الرسول (ص) - مطبقا تعاليم الوحي الإلهي - مسألة ادمان المسكرات بأسلوب التدرج وبالحكمة والموعظة الحسنة، فآثر أول الأمر أن يقر ببعض منافع الخمر إلى جانب مضارها، موجهًا الأنظار إلى غلبة الأثم على النفع حيث قال تعالى: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس والثمهما أكبر من نفعهما..."⁵⁵ ثم جاءت الخطوة الثانية بمنع الصلاة عند السكران حيث قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون..."⁵⁶ ثم جاءت الحالة الحاسمة بتحريم هذه الآفة إطلاقا حيث قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون".⁵⁷

وكذلك أن الرسول (ص) قد أرسى قاعدة عظيمة تساعد المؤمنين أفرادا وجماعات على التكافل التام في تحمل التبعات، وهي قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذه القاعدة توضح مدى المسؤولية الاجتماعية التي يتحمل الفرد أعباءها دور الأمر بالمعروف ودور الحرب كل ضلال، وبذلك يكون هذا التحمل أساسا يعول عليه في الفرقة بين المؤمنين والمنافقين في المجتمع الإسلامي.

⁵⁴ محمد رشيد رضا، الوحي المهدى، ص: 145.

⁵⁵ سورة البقرة، 219\2.

⁵⁶ سورة النساء، 43.

⁵⁷ سورة المائدة، 90\5 - 91.

فان المؤمنين جميعا يتحملون كل تبعة ويخوضون معا كل معركة كقوله تعالى: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم".⁵⁸

وهكذا، فقد جاء الاسلام بأسلوب التدرج وطبقه الرسول (ص) في ارساء النظام الاجتماعى، والقيام بالاصلاح الأخلاقى والتربوى بما يكفل لمجتمعه الاستقرار والأمن، ويحصنه من عوامل الفساد والاضطراب التى تعترى أى مجتمع آخر، وذلك بالاهتمام بحياة الأسرة ونظام الزواج والطلاق والميراث فيها، وتبدو من خلالها صورة كاملة وواضحة للحياة الاجتماعية فى حياة الأمة الاسلامية حتى تكون قدوة صالحة للأجيال القادمة.

2. ضبط النظام الاقتصادى:

قد اعتنى الرسول (ص) بهذا المجال عناية كبيرة، وقام باجراء عدة الأنشطة الاقتصادية المتمثلة فى الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها. وخير مثال فى ذلك أن الرسول (ص) يدعو الناس عامة والمؤمنين على وجه الخصوص الى الزراعة والحث على القيام باحياء الأرض، كما جاء فى حديثه (ص) أنه قال: "ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة الا كان له صدقة"⁵⁹، وقال أيضا: "من كانت له أرض ليزرعها، فان لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤجره عليها"⁶⁰. وقد حمل هذا المؤمنون على الاعتناء بأرضهم الزراعية وقاموا باستخراج خيراتها ومحصولاتها.

⁵⁸ سورة التوبة، 71\9.

⁵⁹ رواه مسلم عن جابر بن عبد الله، وأخرجه فى صحيحه، المرجع السابق، جزء 10، ص: 215 (كتاب المساقاة، باب فضل الزرع والغرس)، والبخارى فى صحيحه، جزء 5، ص: 3 (كتاب الحث والمزراعة، باب فضل الزرع والغرس)، و جزء 10، ص: 438 (كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم).

⁶⁰ روى عن جابر بن عبد الله، أخرجه مسلم فى صحيحه، المرجع السابق، ص: 197 (كتاب البيوت باب كراء الأرض)، وينظر: ابن قيم الجوزية، تهذيب ابن القيم لسنن أبى داود، جزء 5، ص: 56-57.

وكذلك أن الرسول (ص) يدعو إلى الاشتغال بالتجارة دعوته إلى الزراعة، وقد عمل الرسول عليه السلام نفسه في التجارة. ومن الواضح أن المجال الاقتصادي منظم في القرآن تنظيمًا دقيقًا حيث قال تعالى: "... وأحل الله البيع وحرم الربا ..."⁶¹ وقال سبحانه: "... وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون"⁶². وبهذا يتضح لنا أن الإسلام يشجع التجارة الخالية من الربا كما يشيد برؤوس الأموال ما دامت حلالا، ويدعو الله تعالى أيضا إلى القرض الحسن في قوله: "من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون"⁶³. والمعروف أن معظم الصحابة رضوان الله عليهم قد اشتغلوا في التجارة وعلى رأسهم أبو بكر وعثمان بن عفان الذي كان يمل أيضا بزارا،⁶⁴ وتوجد أيضا مهنة الصراف الذي يبيع الذهب والفضة، وكذلك بائع السلاح والرماح وهو نوفل بن الحرث بن عبدالمطلب.⁶⁵ وقد تطلب هذا من الرسول (ص) إنشاء جهاز خاص لمراقبة الأسواق منعا للغش، وأول من عينه في سوق المدينة عمر بن الخطاب، وفي سوق مكة سعيد بن العاص بعد فتح مكة،⁶⁶ وقد عرف هذا الجهاز باسم الحسبة.

وفي الحقيقة أن العمل في الإسلام لا يقتصر على تنفيذ أحكام الشريعة فحسب، بل يشتمل جميع أصناف وأنواع العمل الدنيوي، وجميع ضروب الصناعة والتصنيع. فلا ينقص أجر أحد ولو طلب الدنيا وزينتها بل ينبغي عليه أن يوفى إليه عمله كاملا غير منقوص حيث قال تعالى: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى* وأن سعيه سوف يرى* ثم يجزاه الجزاء الآوفي"⁶⁷.

⁶¹ سورة البقرة، 275\2.

⁶² سورة البقرة، 279\2.

⁶³ سورة البقرة، 245\2.

⁶⁴ عبدالحى الكتان، الراتب الاداري والمعاملات والصناعات والتجارة ...، جزء 2، ص: 2.

⁶⁵ ابن سعد، الطبقات الكبرى، جزء 4، ص: 31.

⁶⁶ عبدالحى الكتان، المرجع السابق، ص: 284.

⁶⁷ سورة النجم، 39\53 - 41.

والى جانب ذلك فهناك أيضا أحاديث كثيرة في مجال العمل والتصنيع تحت على ذلك، ومنها قول الرسول (ص): "لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"⁶⁸، وقوله كذلك: "قال الله عز وجل: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكल ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره"⁶⁹، وغيرها من الأحاديث المتوفرة.

وكان طبيعيا أن لهذه التعاليم الإسلامية في مفهوم العمل أثرها الواضح في نفوس المسلمين، فأقبلوا على أنواع الصناعات يتقنونها محاولين التفوق على غيرهم من الشعوب. ولا عجب أن يهتم المسلمون الأوائل عهد النبوة بصناعة الأسلحة والآلات العسكرية كالسيوف والرماح والنبال والدروع وغيرها، لأن حروبهم المتوالية مع المشركين كانت تفرض عليهم منافسة القرشيين في الصناعات العسكرية، كما تعلم المسلمون وضع المنجنيق: "وأن الرسول (ص) أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق، حيث رمى أهل الطائف"⁷⁰.

3. تثبيت النظام المالي:

قد بين الرسول (ص) أن أكثر مبادئ النظام المالي مستمدة من القرآن الكريم، وجرى العمل في العهد النبوي منذ هجرة الرسول (ص) إلى المدينة، حيث أرسى قواعد وأسس الدولة الإسلامية الأولى فيها، ثم تبعها الخلفاء المسلمون الذين جاءوا من بعده في تطبيق هذه المبادئ المرسومة من قبل الرسول (ص).

⁶⁸ رواه البخاري عن الزبير بن العوام، وأخرجه في مواضع منها، جزء 3، ص: 335 (كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة)، وجزء 4، ص: 304 (كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله يده). ومسلم بشرح النووي، جزء 7، ص: 132 (كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس).

⁶⁹ رواه البخاري عن أبي هريرة، وأخرجه في صحيحه، جزء 4، ص: 417 (كتاب البيوع، باب اثم من باع حرا، وص: 447 (كتاب الإجارة، باب اثم من منع أجر الأجير).

⁷⁰ ابن هشام، السيرة النبوية، جزء 5، ص: 155، ودف حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية ...، ص: 166.

وأن المسلمين بعد هجرتهم الى المدينة قد دعوا الى الجهاد والحرب فى سبيل الله دفاعا عن عقيدتهم ودينهم ومدينتهم، حتى كادت الغنائم تشكل فى البداية أكثر مواردهم، ووجد الرسول (ص) فى هذه الغنائم المصدر الأول لمالية الدولة التى نظمها طبقا لمبادئ للاسلام التى أتى بها القرآن، والتى عمل بمقتضاها النظام المالى فى هذه الدولة. ورغم ذلك فإن أهم إيرادات الدولة النبوية هى: الزكاة، والخراج، والفئ، والغنيمة، والجزية وفيها جميعا فى معنى الضريبة.

فأما الزكاة: فهى أول ضريبة فى الاسلام فرضت على الأغنياء والقادرين من المسلمين، وعرفت أيضا بالصدقة. وتصرف هذه الزكاة على الفقراء وغيرهم من الأصناف، قال تعالى: "... والذين فى أموالهم حق معلوم* للسائل والمحروم"،⁷¹ وقال سبحانه: "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم".⁷²

وأما مقادير الزكاة وتحديداتها فقد وضعها الرسول (ص) والتى عرفت بالسنة النبوية لا بنص القرآن، ومن خلال هذا المصدر - السنة النبوية - قد تبين لنا أن الزكاة على أنواع وتنقسم الى ضربين:⁷³ "ظاهرة وهى ما لا يمكن اخفاؤه، مثل زكاة على الزرع والثمار، وزكاة على المواشى والأنعام. وأخرى باطنة وهى ما أمكن اخفاؤه، مثل زكاة على عروض التجارة، وزكاة على الذهب والفضة". وأما مصاريفها فقد ذكرها الله تعالى فى قوله: "انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم".⁷⁴

وأما الخراج: فهو ما وضع على رقاب الأرضين من حقوق تؤدى عنها، وهو المقدار المفروض على الأرض الذى وقعت عليها الضريبة أداء لحق من

⁷¹ سورة الماعز، 24\70 - 25.

⁷² سورة التوبة، 103\9.

⁷³ أى على الفراء الحبلى، الأحكام السلطانية، ص: 115.

⁷⁴ سورة التوبة، 60\9.

الحقوق، وهو الذى يؤخذ عن الأرض التى تم فتحها بمعرفة المسلمين عنوة وحرباً، أو يؤخذ من الأرض التى أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوها بخراج يؤدونه، كما قال تعالى: "... أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين".⁷⁵

وأما الفئ: فهو المال الذى أصابه المسلمون عفواً دون قتال، ويوزعه على جميع المسلمين دون تخميس كقوله تعالى: "... ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى ولليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم..."⁷⁶.

وأما الغنيمة: "فهى من أموال الكفار ظفر المؤمنون به على وجه الغلبة والقهر"،⁷⁷ وتقسم الغنيمة الى خمسة أخماس كما فى قوله تعالى: "واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسهُ وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..."⁷⁸.

وأما الجزية: "فهى مبلغ من المال توضع على الرؤوس"،⁷⁹ وتسقط بالاسلام، أى أنها وضعت على الذميين كقوله تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".⁸⁰ ولقد ترتب على هذه الإيرادات للدولة الإسلامية هناك نوع آخر من النظام الذى طبقه الرسول (ص) فى عهده، وسار على نهجه الخلفاء من بعده، وهو نظام بيت المال أو ديوان الخراج.

⁷⁵ سورة المؤمنون، 72\23.

⁷⁶ سورة الحشر، 7\59.

⁷⁷ الملوذى، الأحكام السلطانية، ص: 121، وابى يعلى الفراء الحنبلى، المرجع السابق، ص: 136، والامام الشافعى، الأم،

جزء 4، ص: 64.

⁷⁸ سورة الأنفال، 41\8.

⁷⁹ ابن القيم، تحفيل دز الصبحى الصالح، أحكام أهل الذمة ...، ص: 22.

⁸⁰ سورة التوبة، 29\9.

والخلاصة من ذلك كله أن بيت المال قد عرف في الحضارة الإسلامية منذ العصر النبوي ويشرف عليه الرسول (ص) بنفسه، وأوجد له من العاملين لمساعدته تبعا لنوع الضريبة التي كان يقوم بتحصيلها. ومن هؤلاء العاملين⁸¹ عبدالله بن كعب بن عمرو بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحرب بن عبدالله بن عمر الثقفي، وعبدالله بن رواحة، وحذيفة بن اليمان، والزبير بن العوام، وجهم بن الصلت وغيرهم.

ومن ثم كان ترتيب الوظائف في بيت المال قائما نتيجة استقرار دولة المدينة في عهد الرسول (ص)، ونتيجة الحصول على المغنم من الأموال والأرضين لانتصار المسلمين على أعدائهم فكانت هي المصدر الرئيسي لايراد الدولة. وقد تطور هذا النظام بعد أن توسعت الدولة الإسلامية في العصور التالية، خصوصا في أيام أئمة المؤمنين عمر بن الخطاب والخلفاء المسلمين من بعده في الدولة الأموية والدولة العباسية.

ومن هذا كله يتضح لنا أن نظام الحكم الإسلامي في العصر النبوي، وما وضعه الرسول (ص) من تطبيقات وممارسات عملية أثناء حكمه للدولة المدينة، يعتبر ارهاصات لمن يأتون من بعده لارساء الحكم الإسلامي طبقا للقران والسنة النبوية. وكان هذا النظام الذي جاء به الرسول (ص)، نظاما متفردا ومتميزا عن كل الأنظمة السياسية الوضعية التي نجد فيها الانسان يظلم أخاه الانسان، كما أن غايته في الحكم حفظ الدين وحراسته، وسياسة أمور الأمة طبقا لشريعة الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

⁸¹ د. محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص: 8، وعبد الحى الكتانى، المرجع السابق، ص: 222، محمد كردى على، الإدارة الإسلامية ... ص: 12.

الخلاصة:

ان تأثر الحياة السياسية بالسنة النبوية, قد حدث منذ حياة الجيل الأول من الأمة الاسلامية والذي سجل حقيقته تاريخ الاسلام, فقد كانت الأجيال التالية والتابعة متأثرة كلها بالدفعة الهائلة التي أحدثها الجيل الأول, وهى ما زالت مستمرة فى حركة الحياة الفكرة الاسلامية, لا فى داخل العالم الاسلامى وحده ولكن فى الأرض كلها على اتساعها.

وبذلك, فأن الفكرة السياسية الاسلامية قد بدأت مع بداية الدعوة الاسلامية نفسها, ولقد كانت تعاليمها تتضمن معانى هذه الفكرة, حيث أن عقيدة التوحيد الاسلامى كانت ذا تأثير كبير فى قيام المجتمع الاسلامى والأمة الاسلامية, وتحديد كيانها الاجتماعى والسياسى والأخلاقى والاقتصادى على أساس من محبة الله واشاعة العدل بين الناس.

فان أول مقومات النظام السياسى هو وجود الدولة, وكانت هجرة الرسول (ص) الى المدينة بمثابة اعلان عن قيام أول دولة اسلامية فى الجزيرة العربية. وهى عبارة عن مبادرة مباشرة وتأثير مباشر من الرسول (ص) على هذه المهمة, حيث ظهر فيها مبدأ المسؤولية السياسية والاجتماعية ظهوراً مميّزاً, وكان يباشر أموراً من صميم العمل السياسى والنشاط الادارى الحكومى, وممارسة مهامه التى شملت كل نواحي النشاط السياسى والتنظيمات المعروفة آنذاك فى مجالاتها المختلفة.